المكانة الاجتماعية للمسنين في ظل الشريعة الإسلامية

أ.سمير فراطسة
تحت تأطير أ.د. درواش رابح
جامعة البليدة2

ملخص:

يشهد العالم تطورات طبية في مجال علاج الأمراض، وتطور وسائل الوقاية، ما نتج عنه زيادة العمر المتوقع عند الولادة، وبالتالي زيادة أعداد كبار السن بشكل ملفت للانتباه، مما استدعى الانتباه إلى مواضيع تتعلق بالرفاه الاجتماعي لهذه الفئة، ولقد أطلق على هذا العصر عصر المعمرين. وقد كان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة اعتبار عام 1999عاماً دولياً لكبار السن، تأكيداً على أهمية هذه الفئة في المجتمع وتكريمها، وقد سبق الإسلام كل التشريعات في تكريم كبار السن والحث على رعايتهم، ومن هنا جاء هذا البحث للتذكير بمكانة هذه الفئة في ظل الشريعة الإسلامية، من أجل إعادة إحياء هذه المكانة في نفوس الأفراد خاصة مع التغيرات الاجتماعية التي طرأت على الأسرة العربية والجزائرية بشكل خاص.

الكلمات الدالة: المكانة الاجتماعية، كبار السن ، الشريعة الإسلامية، المجتمع.

Abstract:

The world is witnessing medical developments in the treatment of diseases and the development of preventive measures, resulting in an increase in life expectancy at birth, thus increasing the number of older persons in a remarkable manner. This has led to attention to topics related to the social well-being of this group. The General Assembly decided that 1999 should be considered as an international year for older persons, emphasizing the importance and honor of this group of older persons in society. Islam has preceded all legislation in honoring older people and urging them to take care of them. Islamic Law In order to revive this status in individuals, especially with the social

changes that have taken place in the Arab and Algerian families in particular.

Keywords: social status, elderly, Islamic law, society.

مقدمة:

شهد العالم خلال القرن العشرين زيادة غير عادية في أعداد السكان، فبيانات الأمم المتحدة تشير إلى أن عدد سكان العالم بلغ 7.3 مليار نسمة منتصف سنة 2015، مما يعني أن العالم أضاف ما يقرب من مليار شخص خلال آخر 12 عاما، ويقدر أن يصل عدد السكان خلال عام 2030 إلى 8.5 مليار شخص، وحوالي 9.7 مليار شخص خلال عام 2050، وبحلول عام 2100 تتوقع الأمم المتحدة الوصول إلى 11.2 مليار شخص، (United Nations, 2015 , p23) مما يؤكد أن عدد سكان العالم في تزايد مستمر رغم بطء وتيرة النمو.

خلال عام 2015 بلغت نسبة الأشخاص الذين بلغوا 60 عاما فما فوق 12% من سكان العالم (حوالي 900 مليون)، بحلول عام 2030 يتوقع تسجيل 1.4 مليار شخص و2.1 مليار خلال عام 2050، ويمكن أن يرتفع هذا العدد ليصل إلى 3.2 مليار خلال عام 2100.(United Nations, 2015 , p53) في الجزائر وحسب إحصائيات المسح الجزائري حول صحة الأسرة 2002، فإن عدد الأشخاص البالغين 60 سنة وأكثر في تزايد مستمر، حيث بلغ عددهم سنة 2002 حوالي 2.18 مليون نسمة. وبناءا على آخر إحصائيات الديوان الوطني للإحصاء فقد بلغت نسبتهم 8.9% من مجموع السكان (3640000 نسمة) بتاريخ 01 جويلية 2016، علما أن نسبتهم سنة 2013 كانت في حدود 8.3%،(الديوان الوطني للإحصائيات، 2016، ص1) وتوقعت أرقام الديوان الوطني للإحصاءات أن يبلغ عدد المسنين 6 ملايين و7 آلاف شخص في غضون 2030، ما يشكل نسبة 14 بالمائة من سكان الجزائر.

حسب التوقعات المقدمة من قبل الأمم المتحدة والمنشورة حديثا، فإنه خلال سنة 1990 بلغ متوسط عمر الجزائريين 18 سنة، ليرتفع هذا المتوسط إلى 27.6 سنة في عام 2015، وهي المعطيات التي ستتغير من هنا إلى سنة 2050 أين سيصبح متوسط عمر الجزائريين 37.1 سنة، ولعل هذا التغير يظهر بوضوح إذا ما نظرنا إلى معدل

الإعالة[1] الذي كان في حدود 6.3 سنة 1990، ثم ارتفع سنة 2015 إلى 9.1 ويتوقع أن يبلغ 26.8 بحلول عام 2050.(United Nations, 2015, p53)

بالرغم أنه من المبكر الحديث عن شيخوخة السكان في الجزائر، إلا أن هذه الأرقام تدعونا للوقوف عندها، ذلك أنها تتعلق بمدى التحول الذي سوف يفرض واقعه بصفة ملحة، ما يجعل إيجاد مؤسسات إستشفائية متخصصة في رعاية المسنين مطلبا ضروريا، على غرار ما هو معمول به في عدة دول أخرى، خاصة أن هذه الفئة تزداد حساسيتها تجاه الأمراض مع تقدمها في السن.

ويبقى الرهان على الحكومة إن أرادت تفادي المشاكل التي ستلم بوضعية شيخوخة شعبها أن تحسن وتزيد من حجم ونوعية الخدمات الصحية المقدمة، حيث ستواجهها أعباء التكفل بعدد هائل من السكان الذين وصلوا سن الشيخوخة، ويجب عليها إحداث توازن في سوق العمل لتحسين معدل الإعالة.

لا تنحصر مشكلات كبار السن في المعاناة الجسمية فقط لإصابتهم بأمراض الشيخوخة، والأمراض المزمنة، بل إنها تتعدى إلى المشاعر التي تنتج عند إحساسهم بأنهم أصبحوا بلا فائدة في المجتمع، وإنه لا يتذكر البعض من الأبناء أولياءهم بزيارة أو اتصال حتى، إنها ظاهرة غريبة عن مجتمعنا غيرت النمط القديم الذي كان يضم بيت العائلة الكبير، أين الأب والأم أو الجد والجدة هما رأس العائلة ومحورها ولهم كامل السلطة في الأمر والنهي دون جدل، أما في الوقت الراهن فقد خرج عن هذه القاعدة الكثير من الأبناء، فبعض الآباء كانت نهايتهم دور العجزة، لأن أبناءهم لم يعرفوا معنى الوالدين وتعدوا على الطبيعة الإنسانية وتعاليم ديننا الإسلامي الحنيف.

من هذه المنطلقات المختلفة جاءت الحاجة إلى التذكير بالمكانة الاجتماعية للمسنين في الشريعة الإسلامية.

---

(1)نسبة إعالة كبار السن هي نسبة السكان الذين بلغوا 65 سنة أو أكثر إلى السكان الذين تتراوح أعمارهم 15 و64 سنة، ومعدل الإعالة يمثل عدد الأشخاص المعالين لكل 100 شخص في سن العمل (15-64) سنة

1- تحديد المفاهيم

مفهوم المسن في اللغة:

أسَنَّ الرجل: كَبُرَ وكَبُرَتْ سِنُّهُ، يَسِنُّ إسْنَانًا فهو مُسِنّ. (لسان العرب، ص222)،وقد استعملت العرب ألفاظا أخرى مرادفة لوصف هذه المرحلة من عمر الإنسان فتقول:

الشَيْخ: وهو من استبانت فيه السن وظهر عليه الشيب. (المنجد، 1975، ص410)

الهَرم: وتطلق على الشخص الذي بلغ أقصى الكبر. (المنجد، 1975، ص488)

العَجُوز: يقال عجز فلان عن الشيء عجزا وعُجزانا، أي ضعف ولم يقدر على فعله، والجمع عجزو وعجائز، ويقال امرأة عجوز أي مُسِنَّةٌ. (المنجد، 1975، ص488)

وجميع الألفاظ السابقة تدل على كبر السن، وقد نقل عن بعض الحكماء قوله: الأسنان أربعة، سن الطفولة، ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة. (فتح الباري، ص240)

المسن اصطلاحا:

متى يصبح الإنسان مُسِنًا؟ سؤال ليس من السهل الإجابة عنه بصفة قاطعة، وذلك لكثرة العوامل التي تتدخل في وصف الإنسان بأنه مُسِنٌّ أم لا، ولذلك أشار تقرير لجنة الخبراء بالمكتب الإقليمي لشرق البحر المتوسط بمنظمة الصحة العالمية بأنه لا يوجد تعريف موحد للمسن، فقد تعددت تعاريف المسن تبعا لتعدد وكثرة التخصصات العلمية التي تدرس ظاهرة الشيخوخة، وكثيرا ما يرتبط هذا المصطلح بسن الستين، فيقال المسن هو من تجاوز عمره الستين، ولا شك في أن هذا أمر نسبي يتفاوت فيه الأشخاص، فبعض من بلغ هذا العمر أو تجاوزه قد يكون نشيطا ولا تظهر عليه بوادر السن أو الشيخوخة، والعكس كذلك، فإننا قد نجد من هو دون هذا العمر وقد ضعف واشتعل رأسه شيبا، لذا نستطيع القول أن العمر التاريخي للإنسان يُعَدُّ معيارا غير دقيق لتحديد مرحلة المسن.

ومن هنا نجد بعضهم يتخذ أكثر من مقياس لتحديد هذه المرحلة، فيتخذ العمر الزمني مقياسا يتعامل به مع عدد السنين، والعمر البيولوجي، وهو مقياس وصفي يتناول الجوانب العضوية للإنسان، والعمر الاجتماعي، ويتناول فيه الأدوار الاجتماعية التي يمارسها الفرد وعلاقته بالآخرين، وأخيرا العمر النفسي، ويحدد بالخصائص النفسية والتغيرات في سلوك الفرد وحاجاته ودوافعه. (عبد الله بن ناصر السدحان، 1999، ص7).

وعلى ذلك عرّف بعضهم المُسِنّ بأنه: "من دخل طور الكبر" ، ثمَّ يحدد الكبر بأنه : "حقيقة بيولوجية تميز التطور الختامي في دورة حياة البشر". (كمال آغا، 1404هـ، ص157).

وهناك من عرف المسن بما يميزه من تغيرات جسمية ونفسية تحدث بعد سن الرشد، وفي الحلقة الأخيرة من دورة الحياة، ومن بين هذه التغيرات نجد الضعف الصحي العام، الضعف الجسمي، ضعف الحواس كالسمع والبصر، ضعف القوة العضلية، انحناء الظهر، جفاف الجلد وترهله، تصلب الشرايين والتعرض بدرجة أكبر من ذي قبل للإصابة بالمرض وعدم مقاومة الجسم. (حامد عبد السلام زهران، 1977، ص545).

وأكدت منظمة الصحة العالمية عام 1972 على أن سن الخامسة والستين هو بداية لمرحلة الشيخوخة، واعتبار الشخص مسنا، خاصة وأن هذه السن تتفق وسن التقاعد مع الغالبية العظمى من الدول، وفصلت بعدها الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1973 في الأمر بتحديد سن الخامسة والستين لاعتبار الشخص مسنا، وأكدت أن هذا التحديد يختلف باختلاف الأفراد. (محمد أحمد نجيب وآخرون، 2003، ص5). ومنهم من يرى مرحلة الكبر على أنها : "حالة يصبح فيها الانحدار في القدرات الوظيفية البدنية والعقلية واضحاً يمكن قياسه وله آثاره على العمليات التوافقية ". (عزت اسماعيل، 1983، ص17).

ويرى علماء الطب أن هذا السن مرتبط ارتباطا وثيقا بتدهور الحالة الصحية والجسمية للفرد، وغالبا ما يبدأ هذا التدهور عند بلوغ الخمسين ويزداد تطورا مع التقدم في العمر، وقد قال الإمام ابن كثير في تفسير قول الله تعالى {الله الَّذي خَلَقَكُم مِن ضَعفٍ ثمَّ جَعَلَ مِن بَعد ضَعفٍ قُوَّةً ثمَّ جَعَلَ مِن بَعدِ قُوَّةٍ ضَعفاً وَشَيبَةً يَخلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ } [الروم 54] أي أنه يَشْرَعُ في النَّقص فيكتهل ثم يشيخ ثم يَهْرِم، فتضعف الهِّمَة والحركة والبطش وتشيب اللحية وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة.

ويعرف المسنون ديمغرافيا وإحصائيا بأنهم السكان ذوي الأعمار 60 سنة فأكثر. (محمد سيد فهمي، 1999، ص25).

ويلاحظ أن الكثير من الدول متفقة على أن من بلغ سن الستين من العمر، فإنه قد بدأ يدخل في مرحلة الشيخوخة، وبالتالي يفترض أنه عند هذه السن يفقد البعض من قدراته الجسمية

والعقلية، ويصبح غير قادر على القيام بعمله على أكمل وجه، وهنا ما جاءت الحاجة إلى إن يعتزل العمل ويحال على التقاعد.

التعريف الإجرائي للمسن:

مهما تنوعت واختلفت وجهات النظر حول تعريف المسن، فإنه لا يوجد حد فاصل يمكن أن يوصف عنه الشخص بأنه مسن أم لا، وجمعا بين المقاييس السابقة يمكن أن نعرف الشخص المسن على أنه كل شخص تقدم في العمر حتى أصبح غير قادر على التكفل بنفسه ورعاية مصالحه.

مفهوم المكانة الاجتماعية:

لقد اختلف مفهوم المكانة الاجتماعية لدى العديد من المنظرين، فقد أخذ هذا المفهوم الكثير من التفسيرات والمفاهيم، فمنهم من يرى ان المكانة الاجتماعية تشير إلى الوضع في الجماعة والمجتمع، وتعتبر جزءا من الثقافة، لأن ترتيب المكانات يعتمد إلى حد كبير على تقييم الجماعة للأشخاص والأدوار (إبراهيم عثمان، 1999، ص171).

ويرى آخرون أن مفهوم المكانة يرتبط بمفهوم الدور عبر وسيط، وهو توقعات الدور الذي فيه تتحدد أهم الواجبات والحقوق التي يمارسها الفرد في أداء دور معين، والمكانة الاجتماعية التي سوف يحظى بها في الواجبات التي يلتزم بها والحقوق التي يسعى إلى نيلها (الخزرجي، 2010، ص90).

وقدم "فستنجر" (1954) نظريته في المقارنة الاجتماعية التي أشار فيها إلى أن عمليات التأثير الاجتماعي وأنواعا معينة من السلوك التنافسي سببها الحاجة لتحديد المكانة، وتقويم الذات، وهذا لا يتحقق إلا من خلال المقارنة مع الأشخاص الآخرين، فإن كانت آراؤه متطابقة مع آراء الآخرين شعر بالاطمئنان إلى صحة آرائه، وإن وجد فيها ما لا يتطابق فذلك دليل على عدم صحتها، كذلك نفس الشيء مع القدرات، فإن وجد قدراته بنفس مستوى قدرات الآخرين أو أنه متفوق عليهم، شعر بالرضا والإثابة والمكانة العالية، أما إذا كان التقويم واطئا فإنه يقود إلى عدم الرضا والعقوبة والشعور بالمكانة الواطئة. (ألطاف ياسين خضر، ص8).

وعموما يمكن القول أن المكانة الاجتماعية تختلف من مجتمع لآخر، حسب الثقافة السائدة فيه، فكل مجتمع له مكانته العالية ومكانته المتدنية، بسبب اختلاف المعايير المعتمدة

في تحديد المكانة، ولهذا من منظور هذه المجتمعات يمكن أن يساهم التغير الاجتماعي والاقتصادي في تغيير مكانة الأفراد.

ونشير إلى أن المجتمع المسلم لا ينظر إلى المكانة من الجانب المادي أو الاقتصادي، وإنما من منظور شرعي، يحدد مكانة الكبير والصغير، والعالم والحاكم....

2- مكانة المسنين في المجتمع المسلم

لم يترك الإسلام صفة حميدة وخلقا كريما إلا جعله من تعاليمه وآدابه، ليكون المسلم المتخلق به قدوة حسنة في مجتمعه، وقد حث الإسلام على جملة من الأخلاق الحميدة، كالبر وصلة الرحم، التي تحصل بها المحبة والتآلف بين أفراد الأسرة والمجتمع، ومن تلك الخصال العناية بكبير السن، والدا أو قريبا أو جارا أو مسلما وحتى إن كان كافرا.

لقد أمر الدين الإسلامي الحنيف بإنزال الناس منازلهم، وإعطائهم حقوقهم، فالصغير يرحم، والكبير يكرم، والمنفق يشكر وهكذا، ومن أعظم من جاء الإسلام بالتأكيد على حقه وبره وإكرامه، الشيخ الذي كبر سنه، وشاب شعره، وذهب عمره، وضعف بدنه، وعظمت أسقامه وآلامه، إنه كبير السن الذي ذكر الله مراحل عمره، لقوله تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)(القرآن الكريم،سورة الروم، الآية 54)

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان خفيفا ضعيفا ثم أمده بالصحة والعافية، وهي قوة الشباب التي يعيش بها أفضل أيامه، ثم تمر به السنين والأعوام إلى أن يصير إلى المشيب والكبر، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم حيث قال الله تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(القرآن الكريم، سورة غافر، الآية 67)

لقد أكد الإسلام على حق الكبير، سواء كان أبا أو قريبا او جارا، مسلما أو غير مسلم، وجاء في الحديث الصحيح أين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنَّ مِنْ إِجْلَال اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ)(أبو داود ح رقم4843) وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا) (الترمذي 322/4).

فهذه مكانة عالية ومنزلة رفيعة، وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني (لَيْسَ مِنَّا) فيه أن من لا يوقر الكبير ولا يحترمه ليس على هدي النبي صلى الله عليه وسلم، ولا على طريقته وسنته صلى الله عليه وسلم.

إن حق كبير السن يعظم ويكبر من جهة القرابة والجوار، فإذا كان قريبا فله حق القرابة مع حق كبر السن، خصوصا إن كان من الوالدين، قال الله تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا)(القرآن الكريم، سورة الإسراء الآية 23) فأوصى الإسلام بالوالدين خيرا، وأمر ببرهما وجعل الإحسان إليهما مقرونا بعبادته جل وعلا كما في الآية الأخرى(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالا فَخُورًا)(القرآن الكريم، سورة النساء الآية 36). كذلك إذا كان القريب جارا فله حق الجوار وحق كبر السن، وإن كان مسلما فله حق المسلم وحق كبر الكبر، ثم إن الرعاية لم تقتصر على كبير السن المسلم، بل شملت غير المسلم أيضا، فها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى شيخاً ضريراً يهودياً، يمدُّ يده إلى الناس، ويطلب منهم المساعدة، فقال له عمر: ما ألجأك إلى ما أرى، قال اليهودي: فرضتم عليَّ الجزية وأنا كبير السن، لا أستطيع العمل لأؤدِّيَ ما عليّ، فلجأتُ إلى مدِّ يديْ إلى الناس، فرقَّ له عمرُ وأخذ بيده، وذهب به إلى منزله فأعطاه مالاً، وأمر بإسقاط الجزية عنه وقال: والله ما أنْصفناه، أنْ أكَلْنَا شَبِيْبَتَهُ، ثم نخذله عند الهرم، وأسقط الجزية عن كل يهوديٍّ كبيرٍ في السن.

2-1- المبادئ العامة في الإسلام لرعاية المسنين

إن إجلال الكبير وتوقيره وقضاء حوائجه لخلق عظيم، فهو سنة من سنن الأنبياء وشيمة من شيم الصالحين والأوفياء، وينطلق منهج رعاية المسنين -في الإسلام- من منطلق إنساني سام، بعيدًا عن التمييز بين فئات المسنين على أساس الجنس أو اللون أو الدين، وإنما تعتمد هذه الرعاية على عدة أسس تتصف بأسمى معاني الإكرام والإجلال، فهي ترتكز على أسس متينة، وليست وليدة لحظة عابرة من العاطفة أو الرحمة.

2-1-1- الله خلق الإنسان وكرمه

إن الإسلام أول من قرر المبادئ الخاصة بحقوق الإنسان في أكمل صورة وأحسنها، وذلك حينما قرر مبدأ كرامة الإنسان، إن المتأمل في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية يرى أن الله عز وجل كرم بني آدم، وذلك بحفظه بما جَعَل له من الحرمات والحقوق منذ أن خُلِقَ على وجه هذه البسيطة واستُخْلِفَ في الأرض،قال الله تعالى(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا)(القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية 70)

من عموم الآية الكريمة نجد أن هذا تكريم كامل وشامل لكل البشر بغض النظر عن نوعهم أو جنسهم أو دينهم، وتفيد أيضا أن تكريم الإنسان مطلقاً، البرُّ والفاجر، والمطيع والعاصي، بما فيهم كبار السن على أن يكون هذا التكريم دون من ولا أذى لأن هذا حق من حقوقهم.

2-1-2- التكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم

إن التكافل الاجتماعي يظهر في رعاية الأفراد بعضهم بعضًا، حيث يكون أفراد المجتمع أسرة واحدة؛ يعين غنيهم فقيرهم، ويساعد قويهم ضعيفهم، ويحنو كبيرهم على صغيرهم، ولقد حث القرآن الكريم على التعاون والتكافل كما قال الله تعالى(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)(القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية 2) وقال صلى الله عليه وسلم (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا)، وشبك بين أصابعه (البخاري، 2446) فهذا تبيين من النبي -صلى الله عليه وسلم- يفيد الحث على معاونة المؤمن لأخيه المؤمن ونصرته وأن ذلك أمر لابد منه، فهو شيء متأكد، فالمؤمن كالبنيان لا يستقل بأمور دينه ولا بأمور دنياه، ولا تقوم مصالحه على الوجه المطلوب إلا بالمعاونة بينه وبين إخوانه، فإذا لم يحصل هذا وانشغل كل واحد بنفسه فإن ذلك يؤدي إلى تفكك الأسرة والمجتمع، لكن إذا كانت الأسرة مترابطة مع بعضها، فيسمع الأب لأولاده، وكذلك الأم، والجار يتفقد جاره ويعرف حاله، حصل بذلك أمن للمجتمع، يبدأ التكافل من الأسرة برعاية الوالدين ثم ينتقل إلى المجتمع كالجيران وغيرهم. فالعناية بكبار السن أقل ما فيها أنها مقابل التضحيات التي قدموها من أجل إسعاد الأجيال التي بعدهم، إضافة إلى أنها دليل على الإيمان ومظهر من مظاهر المجتمع المسلم.

2-1-3- جزاء الإحسان الإحسان

هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلا الإِحْسَانُ (القرآن الكريم، سورة الرحمان، الآية 60) وهذا يدعم المثل القائل {كما تدين تدان}. والأمور في هذه الدنيا تجري وفق سنن الله تعالى في كونه، ومنها أن الجزاء من جنس العمل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أهان ذا شيبةٍ لم يمت حتى يبعثُ اللهُ عليه من يهينُ شيبه إذا شاب) [ابن أبي الدنيا] فإذا كنت تحترم الكبير وترعى حقه يسر الله تبارك وتعالى لك من يرعى حقوقك في كبرك جزاءً لك من جنس إحسانك، وسيأتي عليك يوم تكون فيه كبيرا مسنا، ضعيف البدن ضعيف الحواس تحتاج لمن حولك أن يرعوا حقك وان يحترموك، وإذا كنت مضيعا ذلك معهم في شبابك كان الجزاء من جنس العمل.[عبد الرزاق البدر، ص27.]

2-1-4- المسن المؤمن لا يزاد في عمره إلا إذا كان خيرا له

لا يتمنَّ أحدكم الموت ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا [صحيح مسلم، الجزء8، ص68] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (خياركم أطولكم أعمارًا وأحسنكم أعمالاً) [مسند أبي يعلى الموصلي ص 214].

وقيل لشيخ كبير: أتحب الموت؟ قال: لا، قد ذهب الشباب وشره، وجاء الكبر وخيره، فإذا قمت قلت: بسم الله، وإذا قعدت قلت: الحمد لله، فأنا أحب أن يبقى هذا !!

من هذا المنطلق كان لزاما على الأفراد احترام كبير السن لعظم منزلته في الدين الإسلامي الحنيف الذي ارتقى فيه الحلق إلى أعلى الدرجات وأسماها.

2-1-5- من شاب شيبة في الإسلام

مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ [الترمذي، رقم 1634]، ويدل الحديث على فضل طول عمر الإنسان على الطاعة وذلك بما ألبسه الله من ثياب الوقار بشيبه [السدحان، ص32]، وما حاز كبير السن هذه المنزلة الرفيعة إلا لما قدمه طول حياته تعب ونصب وطاعة لله، وفي هذه المرحلة من عمره هو في حاجة إلى من يرد له جميله.

2-1-6- وجوب النفقة

إن الحديث الصحيح بين بأن الوالد أحق بمال الولد ما دام في حاجة النفقة فقال صلى الله عليه وسلم : (أنت ومالك لأبيك).

2-2 مظاهر احترام المسنين في الإسلام

الاحترام أدب جميل وقيمة كبيرة، تدلل على تقدير الفرد الصغير لذلك الشخص الكبير لما بذله من تضحيات وما قدمه من عطاء، ومظاهر الاحترام عديدة وقد تختلف تبعا للعادات والتقاليد، وهنا نذكر جملة من مظاهر احترام كبار السن على سبيل التمثيل دون ذكرها كلها.

2-2-1- تسليم الصغير على الكبير

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الكَبِيرِ وَالمَارُّ عَلَى القَاعِدِ وَالقَلِيلُ عَلَى الكَثِيرِ)، يقول الشيخ عبد الرزاق البدر «فإذا لقيت كبير السن لا تنتظر أن يبدأك بالسلام، بل سارع وبادر بإلقاء السلام عليه بكل أدب واحترام، وبكل توقير ولطف» (عبد الرزاق البدر، 2011) فأمر الشارع الحكيم بتسليم الصغير لأجل حق الكبير، لأنه أُمر بتوقيره والتواضع له.

2-2-2- تقديم الكبير في الكلام والمجلس والطعام

عن الفضل بن موسى قال «انتهيت أنا وعبد الله بن المبارك، إلى قنطرة، فقلت له تقدم، وقال لي تقدم، فحاسبته، فإذا أنا أكبر منه بسنتين»[الخطيب البغدادي، ص282]

2-2-3- الدعاء لهم بطول العمر في طاعة الله، والدعاء لهم بأن يحفظهم الله ويمن عليهم بالصحة والعافية.

2-2-4-الله شرع للمسنين أحكاما خاصة

إن كبار السن عادة ما يتوجهون في آخر حياتهم إلى الإقبال على الله بأنواع الطاعات والعبادات، ولعل السبب في ذلك يرجع لكون المسن أحس بانقضاء عمره ودنو أجله، ثم إن الدين الإسلامي خصهم بأحكام وتشريعات ترفع عنهم المشقة والحرج، وتيسر لهم القيام بالعبادات، وهذه بعض الأحكام:

- أن أكثر المسنين عرضة للأمراض لأقل سبب، وذلك بسبب ضعف مناعتهم، فيقاس حالهم على حال المريض الذي لا يستطيع استعمال الماء للطهارة فيشرع له التيمم.

- أن المسن الذي لا يستطيع الوقوف للقيام بالصلاة، رخص له أن يصلي قاعدا أو على جنبه (حسب حالته)، (صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنبك).[البخاري ص284]

- شرع للإمام التخفيف في الصلاة، دفعا للمشقة والحرج، ودليل ذلك ما صح عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلا قال: والله يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان، مما يطيل بنا، قال ابن مسعود فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في موعظة أشد غضبا منه يومئذ، ثم قال «إن منكم من فرين فأيُّكم ما صلى بالناس فليجوز، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة ».

- إذا لم يستطع المسن الصوم، أو شق عليه ذلك مشقة شديدة، فأفطر، فإنه يشرع له أن يخرج الفدية بدل الصوم. قال الله تعالى(أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [سورة البقرة، الآية 184.]

وثبت من تفسير عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال إنها مخصوصة بالشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصيام فيجوز له الإفطار، ويفدي عن كل يوم مسكيناً.

- بر الوالدين من أعظم مظاهر رعاية كبار السن

بر الوالدين وصية الله ربّ العالمين للإنسان قال الله تعالى(وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)[سورة لقمان، الآية 14.]لا ينكر أحد فضل الوالدين على أولادهما، فالوالدان سبب وجود الولد ولهما عليه حق كبير، فقد ربياه صغيرا وتعبا من أجل راحته، وسهرا من أجل منامه، تحملك أمك في بطنها وتعيش على حساب غذائها وصحتها لمدة تسعة أشهر غالبا، كما أشار الله إلى ذلك في الآية.[العثيمين ص14] أما الأب فيكد ويسعى، ويدفع عنك صنوف الأذى، ينتقل في الأسفار، ويتحمل الأخطار بحثاً عن لقمة العيش، ينفق عليك ويصلحك ويربيك.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا [العثيمين ص14]والإحسان أكمل البر، فيدخل فيه جميع ما يحب من الرعاية والعناية، فبر الوالدين من أعظم شعائر الدين فقد قرن الله شكره بشكر الوالدين في قوله(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الأعمال إلى الله-بعد الصلاة لله عز

وجل- بر الوالدين، عن عبد الله بن مسعود قال: سألت النبي «صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال :الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين».

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يرخص لرجل في الجهاد في سبيل الله إلا بعد أن يأذن له والداه، ولذلك لما جاءه الرجل يسأله قال: أحيٌ والداك؟قال: نعم، قال : ففيهما فجاهد.

إن حق الوالدين عظيم، فعلى الإنسان ان يحسن إليهما قولا وفعلا، وأن يلين لهما في القول ولا ينهرهما، قال الله تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)[سورة الإسراء، الآية 23-24.]، وأن يقوم بخدمتهما على أكمل وجه، ولا يستثقل ذلك، وأن يبذل لهما المحبة والتقدير، والطاعة والتوقير، والتأدب أمامهما، وصدق الحديث معهما، وتحقيق رغبتهما في المعروف، والنفقة عليهما. وعدم الحديث بغلظة أو خشونة أو رفع صوت، والاستئذان منهما عند السفر، والدعاء لهما، والسعي في رضاهما ودفع الأذى عنهما. وكل ذلك طريق لتحصيل الأجور وتفريج الكربات.

وذلك الحديث الذي أخرجه مسلم: كان عمر رضي الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم، أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس بن عامر فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مراد؟ قال: نعم، قال: كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال :لك والدة؟ قال: نعم، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول«يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قرن، كان به أثر برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدةٌ هو بارٌ بها، لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»

فاستغفر لي، فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إلي.

وهذا أبو الحسن علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنه كان من سادات التابعين، وكان كثير البر بأمه حتى قيل له: إنك من أبر الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها في صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عققتها.

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه « إن لي أماً بلغ منها الكبر أنها لا تقضي حوائجها إلا وظهري لها مطية، فهل أديت حقها؟ قال: لا، لأنها كانت تصنع بك ذلك

وهي تتمنى بقاءك، وأنت تصنعه وأنت تتمنى فراقها، ولكنك محسن، والله يثيب الكثير على القليل».

وبكى إياس بن معاوية حين ماتت أمه بكاء شديدًا، فقيل له في ذلك فقال: «كان لي بابان مفتوحان إلى الجنة فأغلق أحدهما».

وعن أبى بردة أنَّه شهد ابنَ عُمر ورجُلٌ يَماني يطوف بالبيت، حَمل أمَّه وراء ظهْره، يقول« إنِّي لَهَا بَعِيرُهَا المُذَلَّل ** إنْ أُدْعِرَتْ رِكَابُهَا لَمْ أُدْعَر، ثم قال: يا ابن عمر، أتراني جزيتُها؟ قال: لا، ولا بزفْرة واحدة».

ولنتذكَّر برَّ إسماعيل بأبيه الخليل -صلَّوات الله وسلامه عليهما- حيثُ بلغ به البرُّ منتهاه، فجاد بنفسِه برًّا بأبيه لتنفيذ وحْي الله في المنام.قال تعالى (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ).[سورة الصافات، الآية 102.]

هذه بعض نماذج برّ السلف لآبائهم وأمهاتهم، ولقد فقهوا هذا الأمر فضربوا أروع الأمثلة في بر الوالدين، أما اليوم فقد أصبح الكبير في كثير من البيوت غريبا بين أهله وأولاده، ثقيلا عليهم، فلا يجالسه أحد ولا يؤخذ برأيه ومشورته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه، قيل :من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عنده الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة»

خاتمة

الأصل في رعاية المسنين أن تكون في نطاق الأسرة وفي المنزل الذي نشأ فيه الشخص وتربى فيه، فعلى الأقارب من أولاد أو أخوة أو غيرهم توفير الرعاية الكريمة المستطاعة لهؤلاء المسنين، لأن الإنسان يشعر بعزة نفسه وكرامته إذا كان في بيته، وعلى العكس تكون نظرة المجتمع إليه مع الأسف نظرة مهانة وعطف إذا كان في دور المسنين، ولا شك أن من يقود أباه وأمه إلى هذه الدور قد ارتكب وتحمل إثما وكسب خطيئة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم«كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ» .

الهوامش:

(1)United Nations , World Population Prospects The 2015 Revision, Volume Demographic Profiles, New York, 2015

(2) الديوان الوطني للإحصاء، ديمغرافيا الجزائر، الجزائر، 2016.
(3) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج13.
(4) المنجد، دار الشرق: بيروت، 1975.
(5) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ج 11.
(6) عبد الله بن ناصر السدحان، رعاية المسنين في الإسلام، 1999.
(7) كمال أغآ، التقدم في السن - دراسة اجتماعية نفسية، تحرير: عزت إسماعيل ، دار القلم ، الكويت ، 1404هـ.
(8) حامد عبد السلام زهران، الصحة النفسية والعلاج النفسي، ط2، عالم الكتب، القاهرة، 1977.
(9) محمد أحمد نجيب وآخرون، المسنون في مصر ديمغرافيا واجتماعيا واقتصاديا (أوراق عمل في ديمغرافية مصر رقم5)، المركز الديمغرافي بالقاهرة، 2003،
(10) عزت إسماعيل، الشيخوخة ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، 1983.
(11) القرآن الكريم: سورة الروم، سورة غافر، سورة الإسراء، سورة النساء، سورة الرحمان، سورة البقرة، سورة لقمان، سورة الصافات.
(12) محمد سيد فهمي، نورهان منير حسن فهمي، الرعاية الاجتماعية للمسنين، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1999.
(13) إبراهيم عثمان، مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق، الأردن، 1999.
(14) الخزرجي، سناء على حسون، الكفاءة المهنية لدى المرشدين التربويين وعلاقتها بالمكانة الاجتماعية، رسالة ماجستير، جامعة ديالى، 2010.
(15) ألطاف ياسين خضر، الذكاء الانفعالي وعلاقته بالمكانة الاجتماعية لدى موظفات جامعة بغداد، مجلة البحوث التربوية والنفسية، العدد 32.
(16) سنن أبي داوود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني أبو داود، دار الرسالة العالمية، 2009.
(17) الترمذي، أبواب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في رحمة الصبيان (322/4)
(18) عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، الطبعة1، 2002.

(19) صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم.
(20) ابن أبي الدنيا، العمر والشيب رقم 1343.
(21) عبد الرزاق البدر، حقوق كبار السنفي الإسلام، ط1، 2011.
(22) صحيح مسلم، الجزء8،
(23) مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي التميمي، تحقيق حسين أسد، دار المأمون للتراث، بيروت، الجزء6.
(24) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، باب تقديم الأكابر في الدخول، الجزء1.
(25) محمد صالح العثيمين، حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة.